

(٣) تجاربي في الحياة*

بقلم الاستاذ أسعد لطفى

جدت في فترة العطلة السنوية أمور لا يسعني تركها لأن فيها من العظات والعبء الكثير، فقد حدث أن كان في أول شهورها - وهو شهر رجب - مولد السيد البدوي المعروف بالرجبية، وفيه معرض كبير للمعاملات والأخلاق والعبادات، وفيه ما أس وفواجع ومهازل، وفيه عظات وعبر. في أمثال هذا المولد ترسم الصور الحقيقية للأمة في المعاملات، فقد يؤم أمكنة الموالد خلق كثير يستعدون لأيامها ويقترون على أنفسهم لجمع المال اللازم وإتقائه فيها، فتروج بعض السلع كصنفي الحمص والحلوى، وترفع الرذيلة أعلامها، وتبدو في أقبح صورها، وتنتشر الامراض والأوبئة، وتنتقل الى القرى والبلاد وتكثر جرائم النشل والسرقه والاعتداء على الاعراض، وينتفع المرابون باتباز الفرص لاقتناص الأغرار الجلهاء، وترتفع اسعار الخمر والمخدرات والمغيبات. كل هذا واقع على رأس العامة السذج، وليس هناك من ينصحهم أو يفكر في مصيرهم أو يفار على الدين، وقد ارتكبوا كل ذلك على عقيسة أنهم في موسم من مواسمهم، والأدهى والأمر أن تنصب السرادقات وترفع الأعلام وتحوطها عناية الأمن العام بمسايرة الموابك، وفيه يقوم فريق من رجال يتسمون باسم الدين، ويمثلون أدوار الذكر بالخلاعة والرقص على الأنغام، وبجوارهم رجال لو أنهم أدوا واجبههم وغضبوا لدينهم لا تشلوا اسمه الكريم من بين معتمداتهم وتصرفاتهم. كان لهذه الموالد اثرها الحميد لو أن القائمين بها نهجوا على منوال القادة الحكماء، وأعدوا سير أصحابها وهم من أهل التقوى والمغفرة، وأحيوا ذكراهم بنشرها بعيدة عن التغالى، فأفهموا الناس حقيقة رجا لهم، ودعوهم إلى تقليدهم والاعتداء بأعمالهم، وكان من الجليل النافع الحرص والغيرة على كرامة الدين، فاتخذت الحيطه الشديده لمنع الموبقات والمنكرات والدعاية لمآربتها بالقوة واللين والنصح والارشاد، وانتشال هؤلاء البسطاء الذين يفقدون أموالهم وعقائدهم وعافيتهم وصحتهم وأملهم، وتكون فرصة سانحة لهدايتهم وإرشادهم إلى الصراط السوى المستقيم.

وأعجب ما رأيت ولازلت أذكره أنه بعد اقتضاء المولد تكتب السعادة في الدارين لمن ينال الخطوة بحمل مكنته يتوجه بها إلى المقام الأحمدي ويعمل في نظافة أرضه وغسلها بالماء، وقد

أصبحت بسعال حاد كاد يودي بحياتي، لأنني قمت بجممة الكنفس في أشد أيام القر، فأصابني تصلب في قدي لولا عناية من الله أتقنتني، وكتب لي الشفاء بعد علاج طويل. ولا تنس القربى والزلمى بنوالك قطعة من القماش الأخضر يمن عليك بها رجال الضريح مما يلف كهامة للمقام، لأن فيها سر ذلك الولي العظيم فتحملها تبركا بها واحتفاء في سرها وأملا فيما فيها من خير وتقع عظيم.

لست ممن ينكرون الرلاية والأولياء، بل أعتقد فيما قرره الدين وأحترم نصوصه بشأنهم؛ ولكنني أذكر ماقلت بعد ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من علق تميمة فلا أتم الله له، ومن علق ودعة فلا ودع الله له» رواه أحمد والحاكم في عقبه بن عامر رضى الله عنه. وقيل عن عقبه أيضا: إنه جاء في ركب عشرة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فبايع تسعة وأمسك عن رجل منهم، فقالوا: «ما شأنه؟» فقال عليه الصلاة والسلام: «إن في عضده تميمة» فقطع الرجل التيمية، فبايعه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال: «من علق فقد أشرك» رواه أحمد والحاكم. فإذا يقول السادة العلماء، وعلى مرأى ومسمع منهم يجري كل ذلك وفي مقام كل ولي؟

أذكر ذلك ولا أنسى النذور، لأن لي منها حكاية لأنساها؛ أما النذور فهي شرك بالله وإنكار لوجوده سبحانه وتعالى، إذ يتقدم من نذر نذره لذلك الولي إن قضيت حاجته وتمت مسألته، فعليه لسيد الشيخ كذا وكذا، مما ربما لا يكون في طاقته أو ربما استنفد ماعنده أو الجأه إلى الاقتراض؛ فهل بعد هذا عمل من أعمال الشياطين، لأنه اسراف وتبذير، وشرك وتضليل؛ والمحزن والمخجل أن توضع الصناديق المخصصة لذلك، وترضى وزارة الأوقاف باستغلال بساطة هؤلاء الجهال! وهل لم يكن من البر بذلك الولي أن تخصص هذه الوزارة واعظا يعظ هؤلاء السذج أو يهديهم إلى دينهم، ويبين لهم ضلالتهم؟ إن هذا ما يتجاهله القائمون بخدمة الضريح، إذ تدفعهم الأطلاع إلى الاستزادة واستدرار ما في جيوب أصحاب النذور؛ وبهذا الضلال تدب الغيرة والحسد والحقد في قلوب المتنافسين، فاللهم رحمة بعبادك واهدهم إلى صراطك المستقيم.

أما حكايتي مع أصحاب النذور فهي: في يوم من أيام شهر رمضان، وأنا ابن سبع سنوات، كنت أسير في الطريق وإذا بجاموسة هائجة يجرى وراءها خلق كثير، فلم تشفق علي، وهجمت بقرنيها ورفعنتني بأحدهما ثم ألقنتني على الأرض، ولطف بي ربي إذ أزعجها ضجيج الناس، فتابعت سيرها وتركتني بين الحياة والموت، وقد تداركني لطف من الله ونجوت من شرها بعد عذاب وعلاج طويل؛ وهذه الجاموسة كانت نذرا للسيد البدوي فاهتمت صاحبها بأمرها وكرمتها، فحرمت تشغيلها واستبقته طوال العام ترعى دون أن تعمل شيئا، وحجبتها في دارها حتى حان وقت تقديم النذور فأحضرتها معها إلى البندر فأهاجها ما لم تتعوده من حركة وضوضاء فنارت نائرتها، وقد حزنت صاحبها اعتقاداً بغضب السيد عليها وعدم قبوله لنذرها

فعاهدته على أخرى غيرها، وهذه تذبجها في عامها، ومازلت أذكر تلك الحادثة كما زرت السيد البدوي. انقضت أيام المولد بسلام، وبقي بعدها جيش من الذباب احتل المدينة، وضيف من الأوبئة تفتى فيها، وأثر من الضلال لا يحويه التكفير عنه.

وقد أتحننا صهر عمي (بجانب العزيز وحمص السيد) واشتدت عنايته بنا فألبسنا (الطرطور) يوم الخليفة، وهذه منة ونعمة طالما تحدث للناس بها؛ وقد أنعم الله عليه إذ رزق ابنته زوجة عمي بفتاة كانت سابعة من ولدت، أما من سبقوها فكانوا قد ماتوا، فنظر إلى نظرة عطف وأشار على عمي بزواجها بي اعتقاداً أن هذا ربما أبقى عليها؛ وفعلاً فتح الحساب، وتقيدهم مقدم الصداق مائتي جنيه من مال اليتيم القاصر أسعد.

وكننت أنتظر من وراء هذه المصاهرة معاملة جديدة؛ ولكنها كانت مأساة، فقد استخدمتني «حماتي» زوجة عمي لمولودتها، وكانت ترقب عودتي من المدرسة لكي أحمل «زوجتي» وكأنها كلة حفظتها إذ كانت دائماً تقول: «يأسعد أحمل مراتك» وكان عيشي مرراً إذا بكت، وعذابي شديداً إذا لم أسكتها، وشاء الله أن تعيش لأعيش تمساً بجوارها.

قلت إنها السابعة، ومن سبقها رحل إلى الأبدية ضحية الجبل؛ إذ كان أول ما يودي بحياة هؤلاء الاطفال تحريم الماء عليهم طوال العام الأول، وذلك لأن والديهم مصابان بالزهرى وفي عرف القوم أن أول مرة يصل الماء إلى بشرتهم يظهر الطفح عليها ولو عولجا منه؛ ومن وراء هذه العناية المعكوسة الأحجية التي ينوء بحملها الرجل، فقد كان لكل ولي أثره من حجاب أو تيممة، وفي بعضها شيء من الحديد والأقنال، لابعاد الشياطين ووضع الأغلال في أعناقهم؛ وما يزيد الطين بله، الملابس الصوفية والقطنية التي يلبسها على جسم الطفل استمر اربقائها عليه، وعدم السماح باستبدالها خشية الإصابة من البرد؛ والطامة الكبرى إذا مسه أي عارض فقد تستخدم معه كل شيء يوصف، فإذا خصت أمعاه أو معدته وجدتها قارورة ملئت بكل الأجزاء من حامض وحلو وحريف ومتبيل؛ لهذا كله لا يلبث الا قليلاً حتى يلقي الله شاكياً جهل أمه ومن حولها من النساء والمخرفين من الرجال.

كان لهذه المسكينة ولد جميل الخلقة، له عينان تبارك الله في قدرته، فرمدتا وظهر فيهما الصديد، وحضرت عجوز أشفتت عليه ووصفت له روث الحمار وقت إبرازه، فسرعان ما طبع أمرها ونفذت اشارتها فامتنع الصديد وقت العمل، وهموا باعادة الكرة فأوقفهم تكور العينين وانتفاخهما، فتشددت، قاتلها الله، في تنفيذ قولها، وقد تم لها ما شاء القدر، وفي الصباح فقد الطفل باصرتيه، وكان الله روفاً رحيماً، ذات بعد حمي معوية في زمن قريب.

أمد الله في عمر «أمرأتي» وخرجت بها مرة في الطريق، وحملتها فوق ذراعي، وكانت بدينة، وأحجبتها كثيرة فسقطت مني، وجرح أُنقها، وعبثاً حاولت تضמיד الجرح فعدت أدراجي للبيت

وكانت ليلة ليلاء وكارثة دهاء، صبت فيها زوج عمي على جام غضبها مستفيضاً، فبت ليلي أقالس الذل والعنت، ولم تشفع لي امرأتى عند أمها؛ والطامة الكبرى أن واحداً من أحجبتها ضاع فضاع صواب أمها وبدأت تهددني بالجزاء الأوفى إذا لم أبحث عنه وأعيده، وعبثاً حاولت الحصول عليه؛ وكانت جلسة جامعة منها ومن أمها وأبيها وزوجها يتدبرون الأمر إذ يخافون ضياع حياة ابنتهم بضياع هذه الذخيرة، وقد أقتدني من مخالب التعذيب امتدأوهم إلى الذهاب في الغداة إلى الشيخ حسنين لعمل غيرها.

العقائد يا رجال الدين! فليس أضر عليها مما تسرب إليها من الجهل وانصراف العامة إلى كثير من الوثنيات، فقد وضعوا على رأس «زينب امرأتى» منديلًا وطوقوا عنقها بأخر، وباتت طوال ليلتها ماثلة الغطاء ليصل عرقها إلى المنديلين، وفي الصباح حملتها على كتفي وسرت بها في ركاب جدتها إلى دار الشيخ حسنين، وكم كانت بعيدة جداً، إذ كنت أحمل الفتاة طوال الطريق، ولم أستطع الاستراحة قليلاً، ولم أتركها تمشي خوفاً عليها من الأرض ومن في الأرض من الانس والجان، وفيهم أخوها منهم؛ وقد وصلنا إلى الشيخ حسنين، وبإسعادتنا التي سهل نوالها بدخول داره التي غصت بمئات النساء وكلهن يحملن أولادهن ووقفت بالباب عجوز شمطاء، الويل لمن يعصى لها أمراً؛ فلما ارتنا مقبلين هشت وبشت في وجه جدة امرأتى، ثم أموات إليها لتقرب منها وحملت منها الفتاة وقبلتها ثم قالت: (اسم الله عليك! يا سلام! يا ست دي متزارد) هل وقعت على الأرض؟؟؟ وكان الجرح ظاهراً في أنفها، فأجابتها: نعم، أوقعها (المنجم ده) فقالت العجوز: (طمنى خاطر، يظهر إنها حقيقة، وسيدنا قادر على شفائها، تفضلي ياسيدتى)؛ فناولتها قطعة فضية للشيخ وبعضاً من الدراهم فأفسحت لها مقعداً وأجلستها.

كانت ساعة مبكرة من النهار، وأذن مؤذن الصلاة للظهر، ومكثنا إلى أن حانت صلاة العصر ولم يسمح الشيخ بمقابلته لأحد، وذلك لأن قرينته من الجان، ومن العجيب أنك لم تكن تسمع صوتاً ولا همساً، ولم تكن هذه عادة النساء؛ ولكن اعتقادهن في الشيخ وقدرته على الجزاء أجمت ألسنتهن فقعدن ينتظرن الفرج القريب؛ وأخيراً، وقد قاربت الشمس على المغيب، وإذا بالاذن يصدر من فقيهه، وبدأت المتابلات، فدخلت في الدور الذي حدده، فرأيت شاباً لا يتجاوز الثلاثين من عمره، جميل الخلق، صبوح الوجه، جالساً على مقعد وثير، يفوح العود والتندل في أرجاء غرفته، وكان متكئاً على وسادة من حرير؛ فلما دخلنا اعتدل قليلاً وحملت في وجه الصغيرة ثم قال لجدتها أعطني (الأثر) فناولته المنديلين، وقد عقد على طرف كل واحد منها قطعة فضية من ذات العشرين قرشاً، فناول الأول وشم رائحته، ثم تظاهر بالغيوبة قليلاً وجعل يحدث نفسه كمن يهذى، وبعد قليل مسح وجهه بيده واتجه إلى الجدة وقال: لا تخافي، عمرها طويل، والواقعة سليمة؛ ثم مد يده بالمنديل الثاني ووضعه على أفتقه وبدأ يسعل أو يتساعل، وبعد لآي

أعاد ما قاله وزاد عليه : خذى هذا الحجاب، وضعى عليه شعرتين من رأس يقيم الأب والأم وقطعة من جلد قنفذ، وضعى قطعة من الخبز تحت رأس الطفلة ومعها قليل من الملح مدة الليل، وفي الصباح أطعمى الخبز لكلب أسود، وضعى الملح مع قطعة من الجلد، ثم عودى بعد أسبوع؛ فخرجنا بالنعيمه وقدمضى طول النهار ولم أذوق طعاماً، وعدنا إلى البيت فقابلنا من فيه بثشوق عظيم للوقوف على ماقرره الشيخ؛ وبعد أن قصت عليهم الجدة القصة اطمأنت الخواطر وهذأت النفوس واتعشوا بحسن النتيجة، أما أنا فقد أنهكنى التعب ومالت رأسى وأخذنى النعاس فبت ليلتى بمتانى بدون غطاء وعلى غير فراش حتى أيقظتنى شدة البرد وما أصابنى من جرائها حتى كاد البول ينساب منى على غير إرادة، ولم يكف هذا زوجة عمى، بل كان أول مالاقيته فى صباحى تعينى وتهيدى اذا ضاعت هذه النعمة الجديدة؛ وسرعان ما قضينا الأسبوع وعدنا إلى الشيخ نحمل إليه هدية من الفطائر والحلوى ونجر له خروفاً حنيذاً؛ ولا يفوتنى أن أنبه سيدى القارىء إلى أن مولانا الشيخ حسنين تنازل وقبل منا الهدية وسلمها إلى فتاتين جميلتين تقومان بخدمته.

تمت هذه المأساة وعلقت بذهنى أن عمى الذى كان فى أعماله مسلماً يؤدى فرائض الصلاة فى مواعيتها، وكان يعمل ما استطاع على اعتقاد أنه يؤدى واجبه بكان موقناً ومعتقداً أن للشيخ حسنين فضلاً كبيراً فى حياة ابنته، وكان للمجرد أى إشارة يقوم بإجابة ما يطلب له من الهدايا والعطايا، وكل هذه العائلة المسلمة كبيرة الايمان بمعرفة الغيب واستطاعة الشفاء من السقام، وكانت تقدر أوامره، وهذا كله باطل وشرك وضلال، وعلى هذه الضلالة والزيف فى العقيدة أغلب الناس، فأى شقاء وبلاء بعد هذا الضلال المبين؟؟

اتتهى مولد السيد البدوى، وجاءت ليلة نصف شعبان؛ فوجدت أطفالاً منتشرين فى الشوارع والأزقة والطرقات ينادون جميعهم « دعاء نصف شعبان بمليم » فسارعت لشراء ورقة منها، وكنت سباقاً إلى حفظ ما فيها، وماحات ساعة الغروب حتى كنت بالمسجد ويبدى المصحف الشريف، وتقدت ماجاء بتلك الورقة من: تلاوة قرآن إلى صلاة ودعاء، وثابرت على هذه السنة حتى طالعت رسالة فقيه الاسلام المرحوم الشيخ عبد العزيز شاويش « الاسلام دين الفطرة » واهتديت إلى الحق وعلمت أن العبارات مع ما فيها من تقديس وتسييح، وجد فيها من الدخائل ما أخرجها عن القصد السامى الشريف، لأن ذلك الدعاء يقوم به العامة والجهلاء على عقيدة أنه مهما ارتكب المسلم من الذنوب والآثام، فانه بمجرد الدعاء يغفر له طوال عامه ما اقترف، وقد يعود إلى فجوره وفسوقه فى عامه التالى على أن ينال الغفران بالدعاء، والاسلام برىء من ذلك ويدعو إلى التقوى والاستقامة .

والحزن أن كل ذلك يجرى فى المساجد، وتحت سمع علماء الدين وبصرهم، وهم عن نصيح الجهلاء

أسعد لطفى حسن

معرضون